وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

ربيع في الرماد

زكريا تامر

السلسلة القصصية

٦

الطبعة الاولى

دمشق

١٩٦٣

سلسلة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

ربيع في الرماد

زكريا تامر

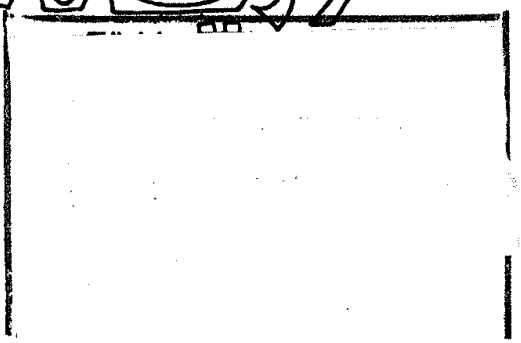

الناشر
الفن الحديث العالمي

السلسلة القصصية
٦

ملح آخر الليل

ألصق يوسف جبهته بزجاج النافذة المطلة على الطريق • وكان الليل خارج الغرفة وردة سوداء باردة ، وكان ثمة ثلج يتساقط بطيئا عبر فضاء من نور شاحب • وكانت ام يوسف تضع آنئذ ابريق الشاي على المدفأة بينما جلس والده صامتا ، ترين الكآبة على وجهه المتغضن ، ويلتمع في عينيه سخط خفي ، ويداه مرتميتان بوجوم على ركبتيه كصديقين متعبين عجوزين •

واحنق يوسف ان يعود القط ويتمسح بساقيه فركله بقدمه متأففا •

وانكمش القط متألما ، وقبع قرب المدفأة ، واغمض عينيه بانكسار ، وأخذ يحلم بعثوره على حديقة أسوارها عالية جدا ، وأرضها مغطاة بطبقة من عصافير لا أجنحة لها ، سيختار عصفورا سمينا ، وسيحملق فيه بشراهة فيذعر العصفور ويتراجع باضطراب •

سيقول العصفور بصوت رفيع متقطع : انا عصفور مسكين •

ـ انا جائع •

ـ سأغني لك •

ـ أنا جائع ٠

وسينقض القط على العصفور في وثبة ضارية ، ويغرس أسنانه الصغيرة الحادة في عنقه ممزقا حنجرته الغضة ، وعندئذ سينزف الدم قرمزيا ساخنا ٠

وضغط يوسف جبينه على زجاج النافذة الرطب بينما كان يتكون في مخيلته وجه اخته الهاربة ٠٠ فتاة وديعة ، دائبة الابتسام ٠ وقال لنفسه : سأقتلها حين أعثر عليها ٠٠ سأفصل رأسها عن جسدها ٠

وسمع أباه يقول له : ألم تتعب من الوقوف ؟

فلم يتحرك يوسف ، وظل صامتا ٠ وأسرعت الام الى التدخل قائلة : نسيت ان اخبركما بما رأيت ليلة البارحة ٠٠ رأيتها ٠

ففوجيء يوسف ، واستدار بحركة سريعة ٠ وحين التقت نظرته بوجهها أدرك حالا أنها قد شاهدت مرة اخرى الافعى التي تحيا مختبئة في بيتهم العتيق ذي الجدران الترابية ٠ وتخيل يوسف الافعى : انها سوداء ، ناعمة ، ملساء ، تزحف بسكينة عبر باحة البيت تحت ضوء القمر الذي كان بازغا بالامس ٠

وقالت الام : ما أجملها ! كانت كالملكة ٠

وشعر يوسف ان الافعى ملكة حقيقية عجيبة ، مات كل عبيدها وبقيت تحيا وحيدة في أرض خربة ٠ واستيقظ في اعماقه غضب قديم ، فقال موجها كلامه لأبيه :

ـ ستؤذينا ، يجب ان نتخلص منها ٠

فتألق سرور خفي في عيني الأب وهو يجيب :

ـ انها تؤذي فقط من يؤذيها .. وقد عاشت في البيت قبل ولادتي ولم تؤذ احدا .

وكان يوسف موقنا بأن الافعى تعلم بانه يكرهها وهي تترقب مقدم لحظة ما ثم ستزحف حاملة اليه الهلاك . وكثيرا ما طالب أباه بالسكن في منزل جديد من اسمنت وحديد وحجر .

وتجسدت في مخيلة يوسف أبنية بيضاء كأنها قصائد من الشعر العذب المفعم بشمس لا تأفل .

وكان الاب يرفض قائلا بعناد : هنا ولدت وهنا سأموت .

وراقب يوسف وجه أبيه بغيظ . وسعل الاب ثم تابع قائلا بسخرية : اعثر عليها اذا استطعت واقتلها .

وقال يوسف لنفسه : سأعثر عليها ولن تفلت مني .

وكان ثمة مقعد فارغ قريب من النافذة ، تأمله يوسف مليا وبحنق .. وكانت اخته اعتادت الجلوس عليه في السهرات .. تضحك وتتحدث وتداعب قطها .. ولكن اين هي الآن ؟

وتاق يوسف الى تدخين سيجارة . وكانت السجائر في جيبه ، ولكنه لم يكن ليجرؤ على التدخين أمام أبيه ، فاتجه نحو باب الغرفة . وبادره والده متسائلا :

ـ الى أين ؟

فقال يوسف : انا متعب وأريد أن أنام

قال الاب : يا لك من مسكين عملك كثير جدا ..

هل تكسر حجارة في النهار ؟ لماذا تتعب ما دمت لا تعمل شيئا ؟ هل أتعبك التثاؤب ؟ قل لي ٠٠ ألم تجد عملا ؟

واعترضت الام قائلة : انه مريض ٠٠ انظر اليه ٠٠ لكم هو هزيل وأصفر ٠

واحس يوسف ان اللحظة التي يخشاها موشكة على المجيء ٠

وصرخ الاب بنزق : أنا لا ألوم أحدا سواك ٠٠ أنت التي أفسدت الاولاد ٠٠ الابن الشاب يأكل وينام ٠٠ والبنت تهرب ٠٠ والزوجة تثرثر مع الجارات ٠٠ والاب يشتغل كالحمار ٠

فقالت الام بصـوت متوسل : لا تصح هكذا ، سيسمع الجيران صوتك ٠

ـ سأصيح كما يحلو لي ٠

وأحنى الاب رأسه ثم أضاف بلهجة أسيانة : آه يا ربي ٠٠ ما الذي فعلته حتى تفضحني في آخر عمري٠

قالت الام : ألم أقل لك ان تبلغ الشرطة عـن اختفائها ؟

ـ كان يجب ان لا تتركيها لوحدهـا ، ولولا خروجك من البيت وذهابك الى الجيران لما استطاعت الهرب ٠٠ لماذا لم تأخذيها معك ؟

ـ كانت المسكينة متعبة بعد أن نظفت البيت كله٠

ـ مسكينة ؟ مسكينة تستحق الذبح ٠٠ مـاذا سنقول لأقاربنا اذا زارونا ولم يجدوها في البيت ؟ هل سنقول لهم : كانت امها عند الجيران فأخذت البنت أكثر ثيابها وهربت ولا نعرف مكانها ٠

والتفت الاب الى يوسف ، وردد بصرامة : أريد منك أن تبحث عنها ، وتجدها بأي طريقة • اذبحهـا كالكلبة •

وتذكر يوسف ايام طفولته ، وكانت الخراف تـذبح في صباح ايام الاعيـاد على عتبـات حوانيت الجزارين •• الخروف يطلق صيحات مذعورة تحت ثقل الجزار ولكنه لا يستطيع التملص •• وسكين الجزار كبيرة النصل وحادة •• تخترق عنق الخروف ويتدفق الدم من جرح عميق أحمر •

وانفجرت الام تبكي ، وهتفت : انها بنتي أنا •• وانتما الاثنان لم تهتما بها أو بي •

وفتح يوسف الباب ، وتسلل الى الخارج • وحين أغلق خلفه باب غرفته شعر بطمأنينة غريبة ، وسارع يشعل سيجارة ، ويعب دخانها على مهل ، ويذرع الغرفة بخطى قصيرة مهتاجة وهو ينصت الى وقع حذائه عـلى البلاط ، ثم توقف بعـد قليل قرب طاولة خشبية ، ورمقها بحسرة •• فهنا مكان المذياع الصغير الذي كان يملكه ، وقد أجبره أبوه على بيعه •

ولقد كان المذياع صديقا وفيا ليوسف ، وها هو بعد فقـده شـاب بلا موسيقى • وأحس بالبرد يزداد حوله ، فخلع ثيابه ، واطفأ المصباح الكهربائي ثم دس جسده تحت اللحاف مسلما رأسه للوسادة •

وكان موقنا بأن الافعى لا بد مختبئة في مكان ما في البيت أو تزحف عبر الغرف بهدوء •

وأطبق يوسف جفنيه ، وكان حنينه الى الموسيقى

ينمو ويتفجر في داخله كغيمة تحولت الى مطر هاطل فوق تراب خشن • واصغى الى موسيقى سحرية قادمة من أعماقه حيث يقبع شيء غامض مرتجف ، يخلق الموسيقى وهو ينتحب ولا يمسح دموعه •

وشعر يوسف بأنه قد يبكي بعد قليل بشدة ، وانه هو المطر والتراب الجاف في آن واحد • وأحس يوسف بأن ثمة عالما مجهولا • قريبا منه كل القرب ولا يفصله عنه سوى جسر من الزجاج • وقال لنفسه : مريض أنا مريض •

واندفع يوسف ، واجتاز مسرعا الجسر الزجاجي فاحتضنه برأفة عالم شاسع مبهم •• سيده الظلام الكثيف •

وتجسدت في مخيلة يوسف بقايا مدن •• ابنية متهدمة •• فهتف بلا صوت : عمري يتبدد •• أريد عمر آخر بلا أب •

وتفجر أساه المكبوت : الاشجار نجوم خضراء • قلبي يطرق بابا مغلقا • دموعي اطفال حزن هرم • لمن يشحب وجه الشمس ؟ الليل وسادة تحب المتعبين • دمي ينزف ، يهرقه غياب امرأة نهدها نائم على بساط ازرق ، يحلم بمدن الرجال •

يوسف يرتجف تحت اللحاف وقد تأكد من انه مريض •• انه يصطاد نجوما ويقول : ليت الجرح لا يصرخ • ويقول : اشرقي يا شمس الغضب •

ويأتي الموت متنكرا في ثياب بحار • يوسف يقول له : ليحملني مركبك الى الشاطىء •

والشاطىء الآخر صوت أخضر ينادي يوسف بكثير من الحنان • ولا يجيب الموت ، ويبحر مركبه ، ويلوح يوسف بيده لمسافرين شاحبي الوجوه •

وأقبل الناس الذين يحبون الموسيقى ، وكانوا يحملون طبولهم وأبواقهم • وتجولوا في حدائق مهجورة • الليل شعر امرأة • لا لا • الليل أفعى تزحف متغلغلة في صميم العالم •

ويئن واحد من الرجال الذين يحبون الموسيقى ، ثم يرفع بوقة الى فمه • وتألق معدنه النحاسي لحظة ثم انبعث منه صراخ طويل متحشرج •• تخلى عن الخجل وناح وكأنه صوت البشر المسحوقين الذين يعيشون بذل فوق الارض الصلبة •

يوسف الآن سيف وعباءة تلاعبها الريح وجواد يعدو فوق رمال الصحارى •• يسمع صوت امـــرأة تستغيث •• اختي تناديني •

وتمنى يوسف لو تأتي الافعى في تلك اللحظة ، ولا يريد أن تميته بسمها انما يبغي ان تطوق عنقـه بجسدها البارد ، وتظل تضغط عليـــه حتى يختنق ويكف عن الحركة •• وعندئذ سينأى عن أبيه وامه واخته والسكين العطشى للدم •

ولعق يوسف شفتيه اليابستين بلسانه ، ولم يكن يريد الاستسلام للسبات لأنه كان يعلم انه سيشاهد أثناء نومه سبع بقرات عجاف ذات خوار حزين ، ترعى في حقل بلا عشب ، وستكون السماء سقفا صلدا واطئا من الجراد والذباب •

لن يستسلم يوسف لليأس • سيظل يبحث عن اخته طوال أيام الشتاء متسكعا تحت المطر والثلج غير آبه للريح والصقيع ولكنه لن يتمكن من العثور عليها ، وسيتأمل بأسى الاشجار الجرداء وستكون كالمتسولات • ولن تترك أصابعه مقبض المدية القابعة في جيبه •

وتمثل يوسف اخته يوم طلبت من أبيه السماح لها بالذهاب الى السينما مع بنات خالتها ، فصفعها الاب بقسوة ، ولن ينسى يوسف نظرة عينيها الذليلتين ونشيجها المكتوم •

وعندما سيأتي الربيع ويعود للسماء صفاؤها ، وتسطع الشمس دافئة ، وتكتسي الاشجار بأوراق خضراء • ستقوده قدماه الى سوق الخضار ، وهناك سيمشي على مهل منصتا الى أصوات الباعة • وبغتة سيبصر فتاة تحمل في يدها حقيبة من قماش ، وستكون منهمكة في مساومة أحد الباعة • وسيتراجع يوسف مضطربا : انها اختي •

وستتلمس أصابعه مقبض المدية ، وسيرقب اخته •• انها امرأة صغيرة متعبة •• بائسة وسعيدة في وقت واحد • وسيتذكر يوسف يوم كان مريضا ومستلقيا على ظهره ، يئن متوجعا ، وحين فتح عينيه شاهد اخته قربه تبكي بصمت •

وستسير الاخت وهي تحمل حقيبتها الممتلئة بالخضار ، وسيقترب منها أحد الحمالين عارضا عليها

عليها حمل الحقيبة فترفض الاخت ، وسيقول يوسف لنفسه : سيدة المنزل الصغيرة تريد توفير النقود ٠

وسيتبعها يوسف ، وعندما تصبح في شارع خاو سيدنو منها حتى تلامس كتفه كتفها فتلتفت مستطلعة فتباغت برؤية أخيها ، وتتسمر متجمدة في مكانهـا ، وتفلت اصابعها حقيبة الخضار ، وستنظر اليه بعينين فيهما ذل وأسى وحنان ثم ستمد اليه يدها ، وسيشعر يوسف بأنها ليست اخته وانماهي امرأة صديقة سافرت طويلا ، وها هي الآن تعود مادة اليه يدها لتصافحه ٠ وسيمد يوسف يده بحركة ذاهلة ، ثم سيظلان واقفين دون كلمة ٠ وسيمر شاب ويرمقهما بنظرة خبيثة وكأنها تهتف : ها هما شابان عاشقان ٠ وسينحني يوسف ، ويحمل حقيبة الخضـار ثم سيسألها بصوت خشن : كيف تعيشين ؟

ـ تزوجت من شاب فقير ٠

وستهرب كل الكلمات من يوسف ولكنه سيدرك ما حدث : شاب فقير ، طيب القلب ، وفتاة تريد ان تحيا ٠٠ وأب لن يزوج ابنته من فقير ٠

وسيسيران معا ثم ستقف الاخت عند مدخل بناية وتقول : وصلنا ٠

وسيعرف يوسف انها تسكن في القبو ، وسيضع حقيبة الخضار على الارض ريثما تفتح اخته الباب ثم سيحمل مرة اخرى حقيبة الخضار ، ويدلف الى الداخل ، وستستقبله على الفور رائحة مخلوقين ينامان في سرير واحد ويضحكان ويتخاصمان ولكنهما لا ينامان حزينين ٠

وسيرتمي يوسف على مقعـــد .. وكم سيكون مريحا . وستتلمس أصابعه ثانية المدية .. سينهض الآن وينتضي المدية ذات الشفرةالحادة ، وسيقبض على شعر اخته ويطرحها أرضا ويذبحها بينما هي تغمغم بصوت هلع خافت : أخي أخي .

وسيتذكر يوسف أيام كان واخته صغيرين .. كان يكبر اخته باعوام قليلة وقد جاءت اليه ذات مرة باكية واخبرته ان ابن الجيران ضربها وقد سارع وقتئذ الى الحارة وضرب ابن الجيران .

سيقول يوسف للمدية : موتي .. ظلي بعيـدة عن الدم .

وستأتي الاخت ، وتقف امامه وقد خلعت معطفها .. يا للثوب الرائع الذي ترتديه !. ثوب امرأة منزل. ستقول له : كيف حال أمي ؟

وسيظل يوسف يرقبها بصمت ، وستندفع فجأة الى النحيب وهي تتمتم : كل اللوم على أبي . لن أسامحه .. عذبنا كثيرا .

لقد عذبنا . لقد عذبنا .

وسيبعد يوسف يده عن المدية ، ويخرجها مـن جيبه ، ويضعها تحت ذقن اخته ، ويرفع وجهها اليه ، وسيكون مبللا بالدموع فيجففه بمنديله وهو يقول بحنو ورقة :

ـ لا تبكي .

وربما وثبت على حين غـرة ، وقبلت وجنته ..

وعندئذ ستمتلىء شرايينه باغنية عارمة للحبور .. وقد يقول لها : هيا هيا .. ابتسمي .

وعندما يعود الى البيت سيجد الافعى مرتمية في الباحة ميتة باردة . وسيتطلع بانتصار الى أبيه المكتئب .

واجتاح يوسف حنو عجيب جارف وهو متمدد على الفراش وود لو ينهض ويضيء المصباح الكهربائي ويحدق الى المرآة .

وأقبل الرجال الذين يحبون الموسيقى وكانوا لا يحملون طبولا وأبواقا .. غير أن أصواتهم الشادية كانت كسهل أخضر لا نهائي .

واستسلم يوسف للسبات العميق بينما كان يتصاعد من باحة البيت مواء قط حزين وكأنه نداء ضارع يناشد مخلوقا ما بالعودة . وكان الثلج خارج الغرفة مايزال يتساقط مانحا الابنية والناس والشوارع قناعا أبيض .

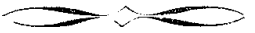

الباب القديم